الهوية والمستقبل، نحو فك أسر الهويات المغلولة.

Identity and the future, towards the liberation of false identities.

د. عبد الكريم عنيات.

جامعة سطيف 2، الجزائر.

الملخص:

"يبدو لي أكثر فأكثر أن الفيلسوف ، باعتباره رجلاً ضرورياً للغد و ما بعد الغد، كان دائماً ولا بد أنه كان دائماً في تناقض مع وقته: كان عدوه دائماً المثل الأعلى اليوم ." من هذا الاقتباس النيتشوي سوف نفكر في إشكالية الهوية في جانبها الفلسفي المتعلق بالمنطق الأرسطي كعلم مكمل لفلسفة الـتصور .والجانب الآخر يعلق على التاريخ والنتائج الاجتماعية للثقافات البشرية .وهكذا سوف نقترح نظرية حول هوية الغد وبعد غد ، لتطبيق علم الأنساب الذي يكشف الأقنعة القديمة.

الكلمات المفتاحية: الهوية، التحيين، الأرضنة، السيولة الهووية، النجازة والانفتاح، الوعي الكوكبي.

Summary:

"It seems to me more and more certain that the philosopher, as a necessary man of tomorrow and the day after tomorrow, has always been and must have always been in contradiction with his time: his enemy was constantly the ideal of today. " From this Nietzschean quote we will think about the problematic of identity in its philosophical aspect related to Aristotelian logic as a complementary science of the philosophy of conception. And the other aspect attached to the history and social outcomes of human cultures. Thus we will propose a theory on the identity of tomorrow and the day after tomorrow, to apply the genealogy that reveals the archaic masks.

Keywords:
Identity, actualization, Adaptation, fluidity of identity, Completion and openness, planetary consciousness.

مقدمة تستدعي المشكلات المهمة: من هوية البؤس إلى بؤس الهوية.

من يتحدث اليوم باسم الهوية ؟ ومن يدافعونويحددون مكوناتها الثابتة ؟ منهو هذا ومن هم هؤلاء ؟ هذه أسئلة وغيرها، تُعلمنا أن التوجهات لا تقف على رجليها مستقلة، بل ورائها إرادة ما تتحدث بلسانها، بل ارادات معينة تتغيّ التحقق على حساب أخرى. فكل تصور للهوية يحمل معه استقواء ما، رغبة دفينة تريد أن تتحقق وتسيطر. إن سؤال الجينيالوجيا(النسابة) هو الذي سيسمح لنا بوصفنا محمومين بالكشف عن الأصول بغية تقييماها

وتعبيرها، وبمعرفة من يقف وراء مقولة الهوية، لكشف خبايا الأقنعة، وتطبيق فن ازاحتها، بل اسقاطها عنوةً من أجل معرفة محركي وممثلي الأقنعة. لا شيء حدث بمعزل عن إرادة ما أرادت أن تتحقق ! لذا تتفجر علينا أسئلة جذرية كما يلي: فيما تتمثل الحيثيات التي من خلالها وضع الكائن الإنساني بالذات له ولغيره مفهوم الهوية ؟ هل للهوية قيمة في حد ذاتها باعتبارها حقيقة أولى أم أنها صناعة من صناعات المجتمع بغية تحقيق إمكانية التعايش الداخلي والقوة الكُتَلية ؟ ثم هل أن مقولة الهوية عاملا للتماسك المجتمعي في المدنية والقوة الحضارية أم هي مجرد أداة للسيطرة الداخلية والهيمنة الذاتية ؟ كذلك نطرح سؤال الفعل والموقف والاستشراف قائلين: كيف يمكن أن تكون الهوية عاملا للانفتاح على العالمي من خلال خرق التقليد الذي يولد الجمود والالتفاف عليه لفة الذكاء البراغماتي ؟

تدل المدنية على التحرر من سلطة القبيلة "القبْلية" في تحديد الوظائف والمناصب والأدوار...الخ. والتي ترتبط بوثاق غليظ مع نمط التدين المتوفر. لذا فلا فاصل بين طريقة التنظيم الاجتماعي وبنية الدين المجتمعي، ولسان حالها، في فضاء الهوية الذي يعمل على ربط العناصر المنفصلة في سياق منسجم يحقق التلاحم في المجتمع. لكن كيف يمكن أن يتكوّن مجتمع مدني بما تحمله المدنية من معان العلمانية والانفصالية والحركية في ظل تدين تقليدي لا يقبل العلم المتحرر من التقليد الدوري ؟ وكيف يكون حال الهوية بما هي دلالة على الانطباق والثبات في مجتمع مدني يأبىّ المطابقة ويرفض الإستاتيكية ؟ تمثل هذه المعضلة، في تقديرنا المتواضع والمتأهب في ذات الوقت، مربط الأزمات المفهومية للمجتمع الذي نفكر فيه ونفكر له ومن أجله، سواء المجتمع الجزائري أو العربي بعامة. إننا نفكر الهوية بعيدا عن الأيديولوجية بمعناها المرذول أولا، وبعيدا عن اليوتوبية بمفهومها المقذوع ثانيا، من خلال البحث في إمكانية التنظير لهوية لا تقوم على سلطة، بل لا تقوم على سلط مهما كانت، أي هوية مفتوحة غير مغلقة، غير نهائية، ديناميكية مرنة لا تتكسر أمام رياح التغيير العاتية، هوية في حالة صيرورة دائمة دون أن تفقد خصوصيتها، والحقيقة أن حتى التقليد له خصوصيات ما تجعله متميزا عن الأصل موضوع التقليد ذاته، هذه الخصوصية التي تواجه على الدوام مشكلاتها التي يفرزها تطورها الطبيعي. فكيف التفكير والتنظير لهكذا مفهوم، وهو المسلك الوحيد الذي يستجيب لخصوصيات العصر الذي لا يعرف التوقف ويأبى الركون والركود. بحيث أن البقاء الحضاري محصور لمن يخلق هويته دون توقف، لمن تفطن إلى تطبيع الهوية بدل أنسّنة الطبيعة من خلال اسقاط هويته عليها. إن مقولة تطبيع الهوية لها من الأهمية بحيث تشكل نظرية مستقلة بذاتها، ومرتبطة بما سنتحدث عنه لاحقا في شأن هوية الغد وما بعد الغد. لأن الطبيعة في حركتها وتكوّنها هي التي تخلق المستقبل. لذا فإننا سنقارب مفهوم الهوية، عن طريق التفكير يأبى المقولات المألوفة، ليس

لأنها خاطئة، بل لأنها متقادمة تحتاج إلى تجديد، لذا سنكتب بعدة أيدي، أي لن نلتزم منهجا محددا، كلها محكومة بأسس الفكر النقدي.

تلعب التربية على الفكر النقدي، وهو القيمة المركزية في الفلسفة وفي كل ممارسة علمية جدية، دورا أساسيا في التنظيم الديمقراطي للمجتمعات المعاصرة التي تنتج ذاتها باستمرار ودون توقف هووي. لذا قيل عن الفلسفة، وعن حق،بأنها "حارسة المعقولية" على اعتبار أن وظيفة المعقولية هي المراجعة الدؤوبة والمستمرة. وهذه السمة هامة باعتبار أن الدعوة إلى المعقولية غالبا ما تكون سببا في رد فعل دفاعي لدى الهويات الثقافية التي تخشى من تهديد معقولية تحمل قيما أو بنيات إبستيمية غريبة عن المألوف والمعهود. والحال أنه في عالم يطبعه صعود اللاعقلانيات وتزايد الانغلاق الهوياتي، لا يمكن لهذا الدور أن يتحقق إلا شريطة القطيعة مع تصور طائفي ثقافي للمعقولية ومع كل نزعة كونية وثوقية في تصور المعقولية. ونحن نعتقد بأن القطيعة لا تعني إطلاقا "التنكر" للسابق، بقدر ما تعني التجديد والسير طبيعيا في ميكانيزم التفكير. لذا فالمشكلة التي نستدعيها هنا استدعاءً استعجاليا للمباحثة النقدية هي: كيف يساهم الدرس الفلسفي في إبطال الهويات القاتلة وتفكيك ألغامها الموقوتة ؟ بحيث أنه لا أحد ينكر اليوم، بأن التعايش في نفس العالم يقتضى، على كل واحد منا، أن يراجع مقولاته الخلفية التي تشكل الهيكل الذهني لخطابه السياسي أو الفلسفي أو الديني.هذه المشكلة أعلاه، نبعت من حقيقة أن المفهوم السائد حول الهوية قد أوصلنا إلى بؤس ثقافي وتشوش في الشخصية الجماعية مرتبط باعتقادنا بهوية كسولة لا تفكر وتغير ولا تجدد، ومن أجل السعي إلى تجاوز هذه البؤس في الهوية الذي أفرز الكثير من المآزق والأزمات على أكثر من صعيد، فإننا نفترض أن مفهوم الهوية في أصله مفهوم بائس، على شاكلة بؤس الفلسفة وبؤس الدهرانية، ولا نجد بؤسا من تركيب ماركس مع طه عبد الرحمن رغم المخاصمة الفكرية بين الرجلين. لهذا كان العنوان الفرعي لتقديمنا هو "من هوية البؤس إلى بؤس الهوية". ومنه سنسعى للكشف عن الفلسفة التصورية وصناعة الهوية في تاريخ الفلسفة الإغريقية بما هي أصل لكل التفكير المنطقي اللاحق بما هو علم مؤسس ومقعد. وهذا السعي سيكون محكوم بمفهوم للهوية بعيد كل البعد عن الإيديولوجية التي تغطي رأسها في الرمال العميقةواليوتوبية التي تسبح في السحاب البعيدة. إننا نفكر في مفهوم الهوية في عالم – اليوم– هنا.

1–الأصول الفلسفية والمنطقية لمقولة الهوية. المدينة الإغريقية وتأسس فلسفة التصور، أو أصل الهوية وفصلها. محاولة في جينيالوجيا الماهية.

لا جدال في أن مفهوم الهوية لا ينفصل عن علم المنطق الذي تأسس أول ما تأسس على يد أرسطوطاليس لذا سماه العرب بالمعلم الأول باعتباره أول من وضع معالم التفكير المنطقي. ومن المعلوم أن هذا العلم أقل

علمية مما نعتقد، أي أنه لم ينفصل البتة عن الفلسفة المثالية أو التصورية، وإن وقع جدل على نطاق واسع بين علمية وفلسفية المنطق، فإن المسألة التي لا خلاف فيها هو أن علم المنطق يشكل جزء من نسق الفلسفة عند أرسطو. كما أنه ليس صعبا علينا البرهنة بأن الفلسفة بنت المدينة أو قل أن العقل هو الابن البكر للحاضرة الإنسانية المبكرة حيث انقسم العمل، وأعمال دوركايم مشهورة في هذا الجانب خاصة دراسته المتعلقة بتقسيم العمل الاجتماعي، عندما أعتبر الحضارة التي تدل على النمو المادي والمعنوي نابعة من تقسيم العمل ذاته، [1] لذا فلا يمكن فصل الحكمة عن المدينة الإغريقية. وفي هذا نتائج مهمة جدا، سنحاول تبسيطها واختصارها.

وقع صراع مذهبي بين نمطين من التفلسف عند البريسقراطيين (الفلاسفة السابقين على سقراط)، تمثل في التقارع بين نظرية الصيرورة الكونية ممثلة في فلسفة هيراقليطسالآفازي الذي يرى أن حقيقة الوجود كامنة في عدم التطابق، أي اللهوية، والتغير المستمر والاختلاف والصراع، وهذا شأن طبيعي لا داعي لتأثيمه أو تقييمه على الأقل. وبين نظرية الكينونة البارميندسية التي تقر أن الشيء هو هو رغم التغير الظاهر له. أي أن هيراقليطس أقر بأن الحواس تخدعنا لأنها تُظهر لنا الثبات رغم التغيرات، في حين أن بارمنيدس قلب المسألة وقال بأن الحواس خادعة، لأنها تظهر لنا التغير رغم أن كل شيء ثابت. ومن هنا تأسس فكر الهوية، وهي الكلمة الأساسية في فكر بارمنيدسالإلياتي.[2] ولأن الفلسفة المثالية تتنكر دوما للواقعي كما هو معطى لصالح التصوري أو العقلي، وعلى هذا الأساس سميتها الفلسفة التصورية، لأن التصور لا يكمن في الواقع المتحرك، بل في الذهن الذي يتمثل هذا الواقع فقط. فإن هذه الفلسفة متمثلة في الأفلاطونية والأرسطية معا، قد احتفظت بنظرية بارمنيدس في حين هاجمت نظرية هيراقليطس بدعوى عدم معقوليتها وتهديمها لكل خاب منطقي مقبول. ولأن البقاء والخلود يكون للفكرة التي تحتضنها مدرسة تتوارثها، فإن التواتر والاستمرار كان من نصيب فكرة الهوية البارمنيدسية التي ارتقت إلى درجة البديهيات الفكرية التي لا يتحقق التفكير المستقيم بدونها، وهذا ما عبر عنه الأورغانون الأرسطي، وقد كان أفلاطون قبله يمجد بارمنيدس تمجيد الأبناء للآباء، وبالتالي فقد تبنى نظرية الواحدية الانطولوجية التي تقول بأن الكل هو الواحد وأن الكثرة منتفية وفق منطق العقل. [3] ومن هنا تم تأسيس المنطق على فكرة تطابق الشيء مع ذاته وثباته وواحديته، وشاع استعمال عبارة "منطق الهوية" وأصبح على لسان الجميع ممن يدرس هذا المجال.

---

[1]Emil Durkheim: de la division du travail social, presses universitaires de France- Quadrige, 2eme édition, Paris, 1991, p 12.

[2] Martin Heidegger: le principe d'identité, dans Questions, tome 1, traduit André Préau, édition Gallimard, 1968, p 257.

[3]Platon: Théététe – Parminide – ou sur les Idées; genre logique, traduit Emile chambray, edition Gallimard, Paris, 1968, para 127 e-128 d, p 214.

وهكذا بلغت الألفة في استعمال لفظة الهوية، نظرا لاحتضانها من طرف أكبر المدارس الفلسفية شهرة ونفوذا، حد عدم التفكير فيها أصلا. فنقول الهوية العربية والهوية الإسلامية أو الهوية الجزائرية بمعنى ما يميزنا عن الغير، وهناك من يستعمل مفهوم الهوية بهدف اقصاء الغير كذلك، إلى جانب من يعتبر أن الهوية تدل على الأصالة والثبات المطلق. فما حقيقة الهوية ؟ أو ما "هوية" الهوية ذاتها ؟ وما الخلفية التي ولّدت هذا التصور المهم في الفكر والعلم والحضارة الإنسانية بالإجمال؟ هل فعلا أن الهوية تلغي التغير أم تعقلنه فقط ؟ هل يمكن تصور الهوية في ظل انعدام الغيرية أو المغاير ؟ هل يمكن فهم الذات دون الأغيار ؟ أو كما كان يتساءل جاك القدري [المؤمن بالقدر]: هل يستطيع الإنسان أن يكون لا هو ؟ هل يمكن أن يكون الإنسان بطريقة مغايرة لهويته ؟ puis- je être moi et un autre.[4] سنفترض أن هذه الهوية التي نكون فيها نحن وغيرنا معا، هي الهوية التي تحمل قيم الاعتراف والتسامح في أسمى معانيها، ولئن شعر بها الكثير من المفكرين الإنسيين، إلا أن الخطاب الذائع عن الهوية، في الفكر السياسي والديني والاقتصادي المعاصر، لم يتحسسها بعد.

إن كلمة الهوية المطابقة للمصطلح الفرنسي أو الإنجليزي **identity/identité** تدل حسب "لالاند" **Lalande** على معان هي:

- التماهي والتماثل، فنقول مثلا الحادثة "أ" تماثل الحادثة "ب". لكن يجب التنبه إلى التماثل لا يدل على التطابق، لأننا بمجرد أننا نسمى الظاهر الأولى أ و الثانية ب، فإننا نقرأن هناك اختلاف ولو على مستوى التسمية فقط.
- وحدة الأنا بما هي دلالة على تطابق الذات، فنقول أن فلان هو هو. أي أن هناك من الصفات ما لم يتغير رغم تغير الزمان وبعض الصفات الأخرى. وهذا ما نسميه هوية شخصية. وفي هذا دلالة على ثبات الهيكل الذهني العام للفرد، وهو ما نسميه الطباع les caractères.
- الهوية النوعية أو الكيفية، والتي تدل على الاشتراك في الصفات. رغم الاختلاف في الزمان والمكان.
- الماهية العددية وهي التماثل الكمي بين مجموعتين، وهذا المفهوم يستعمل في العلم الرياضي على العموم، فنقول أن العدد 12 يساوي العدد 12.[5] أي كل عدد أو مقدار هو نفسه بالذات، لذا نتحدث عن مساواة عددية في ظل اختلاف الصيغ، مثلا نكتب أن 5+2=4+1.

---

[4] Didrot: Jacques le fataliste et son maître, librairie générale française, 1972, p 8-9.

[5] André Lalande: vocabulaire technique et critique de la philosophie, édition PUF – Guadrige, Paris, 2002, p 454-458.

وما يهمنا في هذا المقام هو فحص "كمية" التماهي بين عنصرين أو شيئيين أو حتي حضارتين أو جيلين في الحضارة عينها ؟ هل الهوية التامة أو المطلقة أمر وارد على الأذهان ؟ هل التشابه التام حقيقة واقعية ؟ وحتى من الناحية العلمية أيضا ؟ أم أن الماهية الحقيقية هي ماهية الجزء أو ما يطلق على تسميته الماهية البعضية أو الجزئية Identité partielle.

بالنسبة للسؤال السابق المتعلق بإمكانية وجود ممهاة مطلقة أو تامة، فإننا نعتقد أن هذا المفهوم ينحو منحى مثالي. على اعتبار أن التشابه الكلي مفهوم رياضي أو تخيلي لا يصدق إلا في عالم الخيال العلمي والرياضي من أجل أغراض علمية خالصة. فنحن عندما نتصور في الرياضيات تطابق بين الأعداد أو المثلثات كأشكال هندسية، فإن هذا التصور من أجل البرهنة وسير الاستدلالات فقط. لكن من الناحية الواقعية فإن مهمة انجاز أشكال متطابقة كلية أمر صعب إن لم نقل مستحيل. هذا ما يجعل علم الرياضيات مطلق نظريا ونسبي واقعيا، حتي النتائج في علم الإحصاء تبدوا أقل صحة عندما نطبقها على الواقع مثل إحصاء توزع السكان على الأرض. وقد شاع القول أيضا بأن المنطق (الصوري) يقيد الفكر دون الأشياء؛ بمعنى أن الهوية المنطقية صالحة في مستوى التصور والتجريد الشكلي فقط، فعندما نعتبر أن الإنسان هو إنسان، فإنه اعتبار نظري فقط أما واقعيا فليس هناك انسان يشابه انسان آخر مهما بلغت "نسبة" التماثل بينهما درجة كبيرة. يقول الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه" (1900/1844) معبرا عن وهم الهوية المطلقة وضرورة التمييز بين المماثلة والماهية: "إن المنطق مرتبط بهذا الشرط: الافتراض بأن هناك حالات متماهية، وهذا ما يدل على أن المنطق بحاجة إلى عملية تزوير جذرية في حق الوقائع (...) فالمماثلة ليست درجة من درجات الماهية، بل هي شيء مختلف عنها تماما. وحتى في الكيمياء، فإنه يجب الحديث عن نوعان متماثلان وليس متماهيان أو متهاويان، فليس هناك شيء ما يتكرر مرتين، حتى ذرة الأوكسجين في الحقيقة ليست في علاقة تماهي مع الذرة الأخرى. ومنه فإن وجود شيئيين متماهيين تماما مستحيل." [6] وهنا نشعر بضرورة الالتزام بالنظرة العلمية –بالرغم من أن هذا الفيلسوف السابق مناهض تمام المناهضة للروح العلمية– في تحديد مفهوم الهوية أو المماهاة بما هو مفهوم نسبي أو جزئي خاص.

يتحدد مصطلحIdem في اللغة اللاتينية، والذي يترجم اللفظة الإغريقية toauto، من خلال المفهوم المنطقي السابق للهوية. فهو يدل على "نفس الشيء"، وهيجل Hegel الفيلسوف المثالي الكبير يأخذ هذا المفهوم، [7] ويوظفه

---

[6] Friedrich Nietzsche. La volonté de puissance. Traduit de l’allemand par Geneviève Bianquis, édition Gallimard, Paris, 1995, tome 1, aphorismes 120-126, p p 53-55.

[7] ميخائيل أنوود: معجم مصطلحات هيجل، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للترجمة، القاهرة، د. ت، ص 254.

في تحليلاته المختلفة على أساس أنه يدل على المماثلة العددية والكيفية، ولعل العداء الكبير بين فيلسوف القوة (نيتشه) وفيلسوف الروح (هيجل) عائد إلى هذه النقطة الخلافية؛ وهي الإيمان بالهوية أو عدم الإيمان بها، أو بالأحرى وجود الهوية من عدم وجودها أصلا. لأن الحقيقة تتمثل في أن النسق يقتضي تصور أشياء متماثلة حد التطابق، وإلا فإنه من المستحيل إقامة فكر مترابط الحلقات، ولتعذر الاستنتاج وإقامة العلم ككل، على اعتبار أن لا علم إلا بالكليات مثلما صرح أرسطو في كتبه المنطقية عندما قال بأن "البراهين (بما هي موضوع العلم) من الأشياء الكلية"[8]، والكلية بما هي تصور يقتضي التجريد وإسقاط نقاط الخلاف والتغير والمغايرة والممايزة...الخ. والاحتفاظ بالصفات الجوهرية أو حتى العرضية التي تحقق الوحدة والتقارب والتماثل أو التطابق المفهومي، وبالفعل فإن كل المصطلحات العلمية أو الرياضية قائمة على الفعل العقلي المسمى تجريد abstraction. فمفهوم السوائل بما هو مفهوم نابع من التجريد العقلي تأسس على إلغاء الصفات المغايرة والممايزة للمواد السائلة الحسية المختلفة (الماء، الحليب، الزيت...الخ)، والاحتفاظ بالصفة الأساسية المشتركة وهي صفة السيولة. لذا فإننا نلاحظ، ملاحظة ظاهرة، بأن الهوية تأسست على فعل الإلغاء والاستبعاد، ومن هنا طرحت مشروعية الهوية ذاتها، على أساس أنها فعل "اقصائي من الناحية المفهومية"، هل يحق لنا استبعاد أي صفة، ثم من يحدد الجوهري والعرضي من الصفات؟ أوليس هناك خلفية فكرية مذهبية في هذا التحديد ؟ أي في النهاية؛ أليس هناك إرادة ما قابعة وراء هذا الاستبعاد والاحتفاظ معا ؟ وهي الإرادة التي أشرنا إليها أعلاه.

وقد تكررت عبارة "الهو هو" للدلالة على مبدأ الهوية المنطقي، لكن ليس الجميع مطلع على سر التكرار في العبارة السابقة. لذلك نفضل نقل العبارة الشارحة التي قدمها "علي سامي النشار"، وهي الفقرة التي تحدد بدقة مدلول الهوية، يقول في كتابه المنطقي: "فلا بد من وجود اختلاف بين عنصري الحكم (...) أما أن نقول بأن الشيء هو هو فلن يكون له معنى، ولن تكون له صفة الحكم. فالحكم هو الذي يتضمن حملا جديدا، ولن يتحقق الحكم إلا إذا كان هناك تغاير بين طرفي الحكم، فإذا قلت مثلا الألماني هو ألماني، فلا أقصد بهذا تكرار لا معنى له، وإنما أريد أن أحمل على الموضوع صفة لم تكن ملحوظة في أول وهلة فيه، فحين أقول أن الألماني هو الألماني فإني أريد أن أحمل على الألماني الأول صفات متعددة من قسوة وعدم وفاء...". [9] وكما هو ملاحظ، فإن مبدأ الهوية في الحكم المنطقي يقتضي وجود طرفي الحكم وهما الموضوع (الهو الأولى) والمحمول(الهو

---

[8] أرسطوطاليس: كتاب البرهان (أنالوطيقا الثاني)، ترجمة اسحاق بن حنين، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الجزء الثاني من منطق أرسطو، وكالة المطبوعات – دار القلم، الطبعة الأولى، الكويت – بيروت، 1980، ص 417-418. أو الوليد ابن رشد: تلخيص منطق أرسطو (أنالوطيقي الثاني أو كتاب البرهان) دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1992، المقالة الأولى، الجزء الخامس، رقم 31، ص 445-446.

[9] علي سامي النشار: المنطق الصوري مند أرسطو حتى عصورنا الحاضرة، دار المعرفة الجامعية، دون مكان، د. ت، الطبعة الخامسة، 2000، ص 83.

الثانية)، والتأكيد على ثبات بعض الصفات لا يدل على إنكار التغير أصلا. فعندما نقول مثلا أن: "المسلم هو المسلم"، فإننا نعترف بأن هناك أشياء قد تغيرت وتتغير دوما بفعل الضرورة التاريخية والجغرافية، رغم ذلك فإن هناك ما يبقى ثابتا رغم موجات التغير التي لا تتوقف مثل صفات الاحترام والعفة والرحمة والعبادة
والتعاون...الخ. وقد استعمل الدكتور طه عبد الرحمن مثالا آخر لتقرب مدلول "الهو هو" المتكررة والذي يفيد الاختلاف في الأصل بين طرفي الحكم قائلا: " عندما نقول "العمل هو العمل": فيكون المقصود في الموقع الأول للفظ "العمل" معناه الذي وضع له في الأصل، في حين يكون المراد بموقعه الثاني هو الانضباط في العمل." [10] لذا فالهوية تدل على الاختلاف كشرط للتطابق أو للسعي وراء التطابق. فلا هوية في ظل التطابق والتكرار الكلي.

إذن، فإن فكرة الهوية التي تقتضي عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع كما حددها المفكر المنطقي وواضع علم المنطق أرسطوطاليس، لا تلغي أبدا الاختلاف ولا تلغي التطور، بل فقط تنكر النظرية التي لا تعترف بالثبات الذي هو شرط تفكير الإنسان. هذا هو مبدأ الذاتية أو الهوية الذي يجعل الاتفاق في التفكير ووحدة الأفهام بغية الاستدلال أمرا ممكنا، أما إذا كان كل شيء في حركة دائمة فإن البرهنة لا تتعدى أن تكون لغوا لا فائدة مرجوة منه. مما يجعلنا نعتقد أن "هيراقليطس" عندما كان يصوغ شذراته ويرتب أفكاره، كان ملتزما بهذا المبدأ السابق، وإلا تعذر عليه هو ذاته فهم وقبول ما يقول. [11]لذا يجب التمييز بين نظرية الصيرورة المغالية ونظرية الصيرورة المعتدلة، أي أنه في ظل التغير الكوني، هناك شيئا ما يحافظ على ثبات الشيء لكي لا يتحول إلى شيء آخر كلية. وإلا أصبح كل شيء هو كل شيء، أي أن الموجودات تتحول إلى أمواج متلاطمة لا تمييز بينها، وهذا أمر متعذر حقيقةً.

لكن، وإن كنا نتحدث دوما على الهوية بما هي الحامية والحاملة للخصائص الذاتية لكل فرد منا. وبما هي عنوان التحدي والصمود والانتصار المعنوي، فإن المشكلة التي تظهر تتمثل في القيم المختلفة للهوية ؟ هل الهوية تحمل فقط الصفات المحمودة في الشخص أو الأمة أو حتى الدولة ؟ ألا يمكن أن تتحول الهوية إلى حاملة عيوب ونقائص بما هي تعبير عن تشوه معنوي وقصور قدراتي ؟ وللتوضيح نأخذ المثال السابق حول هوية "المسلم" أو "حتى "الألماني" الذي لم يرضى سامي النشار إلا أن يحمّله بخصائص مقذوعة؛ فنحن نقول أن: "المسلم هو مسلم" بمعنى أن الخصائص الثابتة في سيل التغير المستمر بالنسبة له تتمثل في الأمانة والإيمان والصدق

---

[10]طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، الطبعة الأولى، 1998، ص 40.

[11]Aristote: La Métaphysique, traduit par J. Barthelémy -Saint -Hilaire, édition Bocket, Paris, 1991, livre K, para 1062a, chapitre 5, p370-371.

والكرم...الخ. لكن ألا يمكن أن نفهم من قولنا السابق "المسلم هو مسلم" جملة من الصفات المرذولة مثل الكسل والتكاسل والسلبية والاستهلاكية والتواكليةالباثولوجية (المرَضية)...الخ، مثلما نفهم من قولنا أن "الألماني هو ألماني" جملة من الصفات الثابتة زمانيا ومكانيا مثل الخداع وانعدام الرحمة. وهنا تظهر لنا معضلة "قيمة مكونات" الهوية، هل تتكون الهوية من صفات البطولة فقط ؟ أم تتعداها لتكون صفات الإرتكاسية والرذالة ؟ وقد أشار الدكتور "رالف لينتون" إلى أن الثقافة لا تحمل فقط "المكاسب والأمور الرفيعة موضع التقدير" بل أيضا "الإخفاقات والأمور الدنيا والعاديات"، [12] على اعتبار أن الخداع والاغتراب والفسوق العاهر والتصفية والإبادة...الخ تشكل أيضا عناصر الثقافة الإنسانية.

إننا نعتقد أن الهوية ليست بمعزل عن التكميم والتكييف. فإن كانت هناك هوية جزئية مثلما أشرنا إلى ذلك سابقا، فالأكيد أن هناك هوية كيفية أو كيف للهوية. وبما أن الهوية مسألة مخصوصة بالإنسان حصرا بما هو كائن مجبول بالخلل والنقصان، وبما أنها تتكون وفق تجارب الإنسان وهو في صيرورته التاريخية، فالأكيد أن الهوية ليست أقنوم إلهي ناجز وجاهز بالمطلق. مما يدل على أن هناك دوما "جانب انتكاسي في الهوية". فنحن مسلمين أو جزائريين بخبرتنا وتجربتنا وإضافاتنا، وفي هذا السياق من اللمسات الإنسانية تتدخل عناصر غير مرغوبة رغم كونها تؤثر في بنيتنا الذهنية والسيكولوجية. والحقيقة أننا (نحن المسلمين) نربط هوية الكثير من الشعوب والأمم بالطابع السلبي معرفيا والشرير أخلاقيا والانحراف عقائديا، وعندما نقول بأن "اليهودي هو يهودي"، فإننا لا نقصد إلا ثبات صفات الخداع والنُكس والعدوان والتظاهر...الخ. رغم أن هوية اليهودي بالنسبة لليهودي تحمل على الأقل صفة واحدة إيجابية، وهذا يدل على أن الهوية من حيث الكيف تحمل دوما صفات الإيجاب وصفات السلب. إلى جانب أن الصفات الثابتة في الهوية ليست مطلقة وكاملة، بل هناك ما يتغير فيها، مما يدل على أن الهوية هي "أقل" هوية مما نعتقد من الناحية الكمية والكيفية معا. مثلما أن "الحقيقة" أقل حقيقة مما نعتقد، و"الديمقراطية" أقل ديمقراطية مما تعودنا القول...الخ.

ثم أن الهوية، وهي الكيان الذي ينبثق تاريخيا، يوحي بأنه نتاج "صيرورة" ما. لأن معضلة الأصل لم تحض بكلام فصل حتى اليوم، فهل هناك أصل حقيقي ؟ نحن نعترف بأننا لسنا مسلمين أو جزائريين أو عرب أو أمازيغ منذ الأزل، رغم أننا اليوم كذلك بأتم مدلول هذه الكلمة. وكوننا مسلمين تحت تدخل التاريخ، يعني أن هويتنا الإسلامية

[12] رالف لينتون: الأصول الحضارية للشخصية، ترجمة عبد الرحمن اللبان، دار اليقضة العربية بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت – نيويورك، 1964، ص 58.

وليدة صيرورة وتغير وتغيير. وكل شيئ تدخل عليه التغير، ليس لنا أن نضمن أنه لن يتغير من جديد. وهنا نصل إلى لغز الهوية المُشّكل، وهو أنها قائمة على مبدأين هما:

1 - التغير شرط ضروري لتصور الهوية بما هي تعبير عن الانطباق الكلي والثبات التام المعادي للصيرورة.

2 - الغير بما هو خارج الهوية، ضروري لتشكل مفهوم الهوية ذاته، التي بدورها تستبعده حد الإقصاء. وهذا هو جدل الهوية والغيرية الذي يجب التفطن إليه، فلا يمكن اقصاء الشر الذي يستبعده الخير، وإلا انهار الخير ذاته. أي أن الشر شرط خيرية الخير، وهكذا في كل الأمور الأخرى، لذا نجد هيراقليطس يتحدث عن وحدة وصراع الأضداد.

إذن، فالهوية تشترط مناقضاتها الأساسية وهما "التغير والمغاير"، وهذا يعني أن "الهوية أقل هوية مما نعتقد" فعلا. وهذا الحكم ينطبق على الصيرورة أيضا، بمعنى أن الصيرورة تفترض مسبقا وضعية انطلاق ثابتة، وحتى فهم الصيرورة يقتضي التصور بما هو فكرة ذهنية كلية ومجردة (من التغير والتعدد)، مما يدل أن "الصيرورة أقل صيرورة مما نعتقد". وبالإجمال فإننا نُبلور في هذا المقام نظرية، في اعتقادنا أن لها من الأهمية بمكان. وهي نظرية الهوية الجزئية كميا والثنائية كيفيا. هذه النظرية تعتبر بمثابة البديل المُحيَن والذي يستجيب لخصوصيات التفكير الحالي بما هو تفكير نقدي يستهدف مراجعة الأساسات المألوفة، بديل لنظرية الهوية المحنطة بفعل التقادم في الاستعمال دون نظر أو فحص. إن التفكير خارج السلط الفكرية المتعددة هو رهان كل تجديد بنّاء ومفيد، هذا ما ندعوه اليوم تفكيرا. أما تكرار المقول فهو تفكير منحول أو شبه تفكير على أقصى تقدير. ولئن كنا نخالف التوجه الذي توجهه "البوطي" في فكره العام، إلا أننا نصدقه عندما يقول بأن تكرار تجربة فاشلة ضرب من العبث التاريخي، مثلما أن تكرار فكرا تم تفكيره هو نوع من العبث المنطقي. ولأنشتين نظرية طريفة في ذكاء الشعوب والأشخاص، تقارب فكرة البوطي والأكيد أن تأثر بها، سنفصلها لاحقا، لأن المسألة متعلقة بتكرار التجارب الهووية رغم وحدة النتائج التي أدت إلى البؤس الذي أشرنا إليه أعلاه. فمن العبث أن ننتظر نتائج مختلفة من نفس المقدمات ومن نفس التجارب التاريخية.

2-فك شيفرة الهويات الموهمة: جينيالوجيانيتشه منهجا والهوية الجزائرية موضوعا.

سنقتصر تحديد كلمة جينيالوجيا أو علم النسابة عند نيتشه من خلال الترسيمة الدقيقة والثرية التي قدمها لنا دولوز، قائلا بأنها تدل "على أصل القيمة وقيمة الأصل".[13] وفي موضوعنا المتعلق بالهوية، تعمدنا اختيار تأويلية جيل دولوز الفرنسي على اعتبار أنه أشهر فيلسوف للاختلاف. إلى جانب أنه قدّم تأويلية مميزة لفلسفة نيتشه تختلف عن تأويلية كارل لوفيث المشهورة. فإن كان هذا الأخير يقر بأن العود الأبدي هو عودة المماثل، فعنوان دراسته القيمة يدل على ذلك، وعندما قرر أن العود الأبدي هو تكرار للذاته أو عودة للنفسه.[14] فإن دولوز قدم تأويلية تتركز على أن التكرار هو تكرار المختلف. والتركيز على المختلف يدل على التغير وصيرورة المختلف. وهذا في تقديرنا تأويل ثوري لفكرة الهوية. فالهوية أقل هوية مما نعتقد، لأنها في حالة اختلاف وتطور وتكرار لهذا التطور. ولا يمكن أن تكون وفق المبدأ القائل لا جديد تحت الشمس. ووفق هذا المنظور نفهم جيدا عنوان أطروحة دولوز للدكتوراه تحت عنوان" الاختلاف والتكرار" Différence et répétition. فالهوية قائما على الثبات والتكرار، لكن تكرارٌ لمكونات مختلفة وإن كنا لا نشعر بها. ولئن كان دوما نعتبر "الاختلاف ملعون"،[15] في تصور الهوية، إلى جانب التطور، فإن ذلك لا يمكن أن يطرده من حقيقة الهوية ذاتها. لأنه كما لاحظنا سابقا، فإن الهوية تشترط في وجودها التغير والاختلاف والمغايرة والمغاير أيضا أو قل المختلف.

في عودتنا إلى مفهوم "أصل القيمة وقيمة الأصل"، ينبغي أن نعترف بأن الهوية قيمة من القيم. لذا نجد أنفسنا متمسكين بها فيما وراء المفهوم والمعنى والمدلول، نظرا لاعتقادنا أنها القيمة العليا التي تحدد كياننا، وتجعلنا نتمايز قوميا وعقائديا ولسانيا. وقد تكفل العنصر الأول من هذه الدراسة بتبيان أصل قيمة الهوية، من خلال الإشارة إلى غلبة الفلسفة التصورية الإغريقية، وهي في العموم فلسفة المثال الكلي الثابت المعادية لفكر الحس المشترك القائم على التعامل مع الوجود المباشر والمعطى. وهذه الغلبة تدل على انحصار أو أفول الفلسفة المعارضة لها وهي الفلسفة الهيراقليطسيةوالسوفسطائية التي تنكر وجود هوية ما. فكل شيء في سيلان، وكل شيء في تغير وحركة، ولا وجود للكلي، إلا في حدود الإنسان الفرد المختلف والمتغير هو ذاته. وهنا فقط يمكن التأكيد على معقولية التأويلية التي قدمها بروتاغوراس: الإنسان مقياس الأشياء جميعا

---

[13]Gilles Deleuze: Nietzsche et la philosophie, PUF, Paris, 1ere édition, p 2. La définition est la suivante: "génialogie veut dire à la foi valeur de l'origine et origine de la valeur."

[14]Karl Löwith: Nietzsche: philosophie de l'éternel retour du même, traduit Anne-sophieAstrup, editionCalmann-lévy, Paris, 1991, p 191.

[15]جيل دولوز: الاختلاف والتكرار، ترجمة وفاء شعبان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص 486.

Pantonmertonanthropos.[16]وبمانسبة ذكر السوفسطائية، فإنه من السهل جدا الانتقال إلى نقد نيتشه، لأنه سوفسطائي معاصر، لمفهوم الهوية المنحدر من المنطق والفلسفة التصورية. وسنختصر النقاط التالية المخصصة لذلك:

- نحن نؤمن، يقول نيتشه في بحثه عن مولد المنطق في الذهن الإنساني، أن هناك ثبات في الهوية مزدوج مرتبط بثبات الذات العارفة وثبات موضوع المعرفة. ولأننا نميل إلى التمسك بأهداب الثباتية، فلم يكن لنا إلا صياغة مبدأ الهوية التي يلغي سيولة الذوات والصفات والموضوعات التي تتحول دون توقف. لكن الحقيقة هي عكس ذلك تماما. فلا يمكن أن نعترف بثبات الذات، سوءا ذاتنا أو ذوات الأغيار، لأننا في حالة اختلاف مزمنة لا تتوقف، فنحن ليسنا نحن دوما. لذا تعذر على أي ذات أن تطابق ذاتها أو شيء أن يطابق نفسه، لأن ليس هناك حقيقة أي شيئين متماثلان كل التماثل. [17]
- مبدأ عدم التناقض، الذي يعزز مبدأ الهوية، أو قل هو الصورة السلبية للهوية، كأن نقول لا يمكن أن أكون مسلما وكافرا في نفس الوقت. وهو التعبير المتحدد للمبدأ النظري "لا يمكن أن يكون أ ولا أ معا". قلنا أن هذا المبدأ حسب نيتشه لا يعبر عن ضرورة منطقية كما ترسخ ذلك في عقولنا وفق مبدأ الألفة المفهومية. بل يعبر بكل بساطة عن "عدم مقدرة" فقط على هذا الجمع بين متناقضين. [18]فالشيء المنطقي ليس منطقي في الواقع، بل هو منطقي لأننا نحن الذين نعتبره منطقيا في البداية. ونفس الشيء يقال عن الهوية، فليست الهوية هوية من حيث الطبيعة، بل نحن من يصنع الهويات، وفي الكثير من الأحيان نعيش البؤس المخيف مما صنعناه. لذا فكل شيء ينطلق من توهم العقل واختلاقاته التي لا تنتهي. فلا هوية للأشياء إلا لأننا اعتبرناها متهوية وثابتة ومنطقية. [19] وقد أشار "هردر" الألماني إلى أننا، نحن البشر، نصنع سجون هوياتيه، ثم نتباكى ونتحايل للخروج منها وتحطيمها، فأي عبث هذا.

وليس من الأمور الجديدة، إذا تحدثنا عن الهوية الجزائرية وفق هذا المنظور النقدي الذي هز أسس التفكير التقليدي، الذي هو تفكير ميتافزيقي في طريقته وليس في موضوعاته فقط. لأن التفكير وفق منطق

---

[16]Gilbert RomeyerDuerbey: Les Sophistes, P U F, 4eme édition, Paris, 1995, p 18 -20.le fragment que l'histoire de la philosophie à conserver est le suivant: " l'homme est mesure de toutes choses, des choses qui sont, qu'elles sont, des choses qui ne sont pas, qu'elles ne son pas."

[17]Friedrich Nietzsche: le Gai savoir suivi de fragments posthumes – été 1881- été 1882, traduit Giorgio Colli et MazzinoMontinari, édition Gallimard, Paris, 1996 , § 111, p 141.

[18]Friedrich Nietzsche. La volonté de puissance, tome 1, Op.cit, §115, p 50. Et Martin Heidegger: Nietzsche, tome 1, traduit pierre Klossowski, editions Gallimard, Paris, p 464.

[19]Jean –Michel Rey: l'enjeu des signer- lecture de Nietzsche, éditions de seuil, Paris, 1971, p 55.

الثبات لهو الصورة الواضحة لبقايا التفكير الإغريقي التصوري المثالي الذي يتنكر لسيولة الواقع وطبيعة التغير المتجذرة في الوجود. ونظرا لضيق المقام هنا، سنكتفي بعرض نموذجين لنقد فكرة الهوية، نموج فلسفي وآخر تاريخي.

- معركة حول مفهوم الهوية: عبد الله شريط وفلسفة الهوية الجزائرية. ما يُشكر عليه الأستاذ شريط هو فلسفته لواقع الجزائر من كل جوانبه، من خلال تحرره من المقولات الفلسفية النظرية التي تعلمها في أقسام الفلسفة، ولهذا حق نعته بعميد الفلاسفة الجزائريين دون أي مغالاة. ومن بين تشخيصاته النيرة نجد اشارته إلى أن مفهوم الهوية الذي يرتبط بالوحدة والثبات قد ولد ثنائيات قاتلة، ويظهر ذلك من خلال طغيان النظرة الازدواجية على كل شيء، بل نقول طغيان الواقعة الازدواجية، لأن هذا الازدواج واقع لا يمكن انكاره: "الدين في الكتب شيء وفي واقع الناس شيء آخر، واللغة التي نكتب بها في واد، والتي نتخاطب بها في واد آخر، والسياسية التي نسطرها في مواثيقنا ودساتيرنا غير السياسة التي نعيشها ونطبقها في واقعنا العملي." [20] ونحن نظيف ما لم يدركه بعد فكر الدكتور شريط، لأنها ظاهرة مستحدثة في زمننا، وهو أن لنا دينار رسمي ودينار شعبي أو "غير قانوني" أو موازي، إذ بلغت بنا التثنية إلى درجة أننا مزدوجي الهوية. فأنظر كيف أفرزت الهوية الواحدة انقساما ثنائيا. وهذا من أنواع البؤس الذي تنتجه الهوية مفهومة فمهما ميتافيزيقيا واحديا مغلقا. وهذا عكس الفكر الغربي الذي لا يتصور أن الهوية صنما ناجزا، بل هي في حالة نمو وتطور مستمرين. فالمفكر الأوربي مهما بلغ من الرقي فهو غير راض عن نفسه، فعلى ما يدل هذا الانزعاج المزمن من الذات ؟ في مقابل اطمئناننا نحن على حالتنا وبنية أفكارنا. هذا يدل على اعتقادهم (الغرب) بانفتاح الهوية وامكانية تحولها إلى وجهة غير متوقعة على الإطلاق، في حين أن المنظور المسيطر على المسلم هو تدني المرحلة اللاحقة عن المرحلة السابقة، وهذا لعمري عين الهوية المغلقة والمتقهقرة. [21] والغريب الذي يشكل المفارقة بين نمط الهوية الغربية ونمط الهوية الجزائرية مثلا هو أن الغرب ولو أنهم ينجزون واقعهم المادي الانجاز التام المغلق أو قل الكامل (المباني والآلات...الخ) إلا أن فكرهم بقي دوما مفتوحا غير ناجز، في حين أننا نحن الجزائريين نترك عالمنا المادي مفتوحا غير منتهي (المباني غير المنتهية أين تخرج قضبان الحديد لسنوات عديدة معلنة عن إمكانية استمرار البناء وتطويره) في حين أن أفكارنا مغلقة ومنتهية لأننا نعتقد بنجازية الماضي الفكري. إن هذا التفارق يدل على خلل في الهوية وفي تصور الهوية معا. فالاعتقاد بنجازة الهوية في

---

[20] عبد الله شريط: معركة المفاهيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية، 1981، ص 103.
[21] المرجعنفسه، ص 179.

الماضي البعيد، لهو التمهيد النظري لرفض أي درس نقدي، في حين أن "النقد والنقد الذاتي يجب أن يشكلا خبزنا اليومي" [22] كما يقول موريس توريز.

وهذه الفكرة التي نحن بصدد تحليلها، أي الهوية المفتوحة على الإمكانيات غير المتوقعة، وهي الفكرة التي فكرها نيتشه التفكير الجذري عندما تحدث عن الإنسان كحيوان غير متحدد بعد كل التحديد. أو قل الحيوان الذي لم يمتلك بعد وضع معين ومحدد، وهذا أيضا يمهد لنظرية تجاوز الإنسان لنفسه كمبدأ يسير عليه، يقول نيتشه في برولوغ زاراتوسترا: ما الإنسان إلا كائن يجب أن يتجاوز نفسه. [23] وتتحول نظرية التجاوز إلى مبدأ عام للوجود الهووي، أي خلق هوية تحتوي على مبدأ تجاوز نفسها من خلال التجديد والتجريب المستدامين. ومبدأ الهوية التي تقبل التجريب وتنفتح على الممكن، لهو أهم مبدأ يمكن التنبيه إليه من أجل الخروج من الهويات القاتلة والموهمة بالأباطيل المكلسةوالمميته، لهذا فإننا، في هذا السياق، نشير إلى تقسيم "مالك بن نبي المهم للأفكار وهو الأفكار الميتة والأفكار المميتة. ومن هنا استعملنا عبارة الهوية المميتة للدلالة على الهوية التي تعلِّم الجمود في مقابل الهوية التي تعلم التجريب. وما نقصده بالتجريب هو البحث عن إمكانيات جديدة بعد التأكد من فشل الإمكانات القديمة، أليس هذا هو عين العاقلية؛ عدم تكرار التجارب الفاشلة ! ومن هنا تتحدد مهمة المفكر أو الفيلسوف، أي خلق المستقبل من خلال تجريب الإمكانيات الجديدة، وجعل المعرفة خلق وإبداع بدل توجيهها نحو الاستذكار والاحتفاظ.[24] ونحن نعلم بأنه تم تمجيد الحفظ كوظيفة للذاكرة، أي تم أخلقة الفكرة الحافظة في مقابل ترذيل وشيطنة الفكرة المبتدعة والمستقلة والمنفردة.

- الدرس النقدي الذي قدمة عميد المؤرخين الجزائريين الدكتور أبو القاسم سعد الله: ولو أنه عمد إلى اقصاء بعض عناصر الهوية التي نسميها جزائرية من خلال هجومه على بعض الشخصيات التاريخية القديمة مثل يوغورطة وتفضيله لشخصية عقبة بن نافع. [25] إذ أنه لم يخرج من جدل المرجعيات والانتماء بالمفهوم السلبي المنحاز. إلا أن الدكتور سعد الله قد تنبه إلى أن الخيارات الهووية متعددة وغنية وليست شحيحة، فالعناصر التي تشكل هذه الهوية يمكن أن تتسع لتشمل الأجزاء المتعارضة والمتناقضة. ونخص بالذكر

---

[22] عبد الله شريط: من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ص 167.

[23] Friedrich Nietzsche:Ainsi parlait Zarathoustra – un livre pour tous et pour personne, traduit par Henri Albert, édition club Géant- presses de la renaissance, Paris, 1958, le prologue de Zarathoustra, § 3, p12." Zarathoustra parla au peuple et lui dit: je vous enseigne le surhumain. L'homme est quelque chose qui doit être surmonté."

[24] Friedrich Nietzsche:par de là le bien et le mal -Prélude à une philosophie de l'avenir, traduit Henri Albert, librairie Générale Française, Paris, 1991, § 211, p 232.

[25] أبو القاسم سعد الله: أفكار جامحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص 17.

هنا دراسته النقدية لجمعية العلماء المسلمين من خلال مقالته الموسومة بـ "رأي في دور جمعية العلماء".[26] إذ أنه كشف النقاب عن تعدد إمكانيات تشكل الهوية الجزائرية الحديثة، بعيدا عن الواحدية التي تقصي أكثر مما توحد.

3 – الهوية غير الناجزة: مشروع نظرية.

لئن كان مبدأ الهوية مرتبط بالمنطق الصوري الأرسطي التقليدي، فيجب أن نعترف بأن "سقوط" سلطة هذا المنطق من خلال ظهور الكشوف المنطقية المعاصرة، ستؤدي حتما إلى تأسس نظرية مستجدة في الهوية. ولئن كانت كل فلسفة تقوم على علم زمانها، فإن الثورات العلمية كفيلة بتحريض الثورات الفلسفية ومن بينها الهوياتية. ولئن كان أيضا المنطق الهووي قائم على مبدأ الثالث المرفوع، حيث ليس هناك إلا قيمتين: الصدق والكذب، الخطأ والصواب، الصالح والطالح. فإن المنطق المعاصر الذي يمكن أن يسمى بالمنطق المتعدد القيم، حيث يلغي مبدأ الثالث المرفوع لصالح مبدأ الرُّفوع الغير متحددة، بل مبدأ رفع الرفع ذاته، سيغير مفهوم الهوية التغيير الجذري. والأكيد أن الفكر الأوربي الحالي، بل الفكر الغربي عموما، قد استجاب لهذه الثورة وشكّل مفهوم مفتوح للهوية، قائم على "التنكر لمبدأ الثالث المرفوع" وهذا ظاهر في المستوى الفكري كما على المستوى السياسي والاجتماعي. فلم يبقى الكفر ما بعد الحداثي، الذي يدل على مراجعة العقل لذاته ولمبادئه الصارمة وطموحه المفرطة ووعوده المغالية، لم يبق ينظر إلى الهوية بمنفس المنظار، بل انتقل من الثنائية الحادة، التي تحكم الصدق والكذب، إلى تعددية متسامحة، من خلال تأسيس منطق التعدد الذي يقول بأن الصدق يحتوى على الخطأ ولو بصورة ضمنية آجلة، وأن الخطأ يتكون من صدق ما ولو أنه غير ظاهر الآن. يتبدى ذلك في طفو مقولة النسبية المعرفية على السطح واستخلافها لمقولة المطلقيةالابستمولوجية، بحيث أصبح الخطاب العلمي والفلسفي والسياسي أكثر تواضعا، وأكثر ميلا نحو التسامح، أو قل توسيع هامش التسامح إلى أقصى الحدود.

لقد تأسست نظرية الهوية التقليدية على عقلانية النجازة والنهاية والكمال، وهي عقلانية تنتهي في الغالب إلى ضرب من الطمأنينة التي تتعامل مع المفاهيم والكلمات والأشياء تعامل الثقة التامة. لكن هل فعلا هذه الطمأنينة حقيقة دائمة ومؤسسة ؟ هكذا تساءل العقل الفلسفي الذي لفظ آخر مقولات الحداثة الصارمة. وقرر بضرورة "الانفلات من الطمأنينة الكاذبة التي تجلبها معرفة نتصورها مكتسبة بشكل نهائي."[27] فالمسألة النهائية الوحيدة

---

[26] المرجع نفسه، ص ص 47- 108.

[27] مفيدة قوشة (تحت اشراف): الفلسفة مدرسة الحرية – تعليم الفلسفة وتعلم التفلسف: وصف الحالة الراهنة واستشراف المستقبل، ترجمة فؤاد الصفا وعبد الرحيم زرويل، تحت اشراف علي بنمخلوف، منشورات اليونيسكو، باريس، الطبعة الأولى، 2009، ص 231.

التي يمكن أن نؤمن بها، هي أنه ليس هناك شيء ما نهائي، مثلما أن المسألة المطلقة التي نقررها هي أن ليس هناك شيء ما مطلق، بل كل شيء نسبي. Tous choses est relative. والمطلق الوحيد هو التناسب والتعالق.

لقد أصبحت عبارة كانط التي تصف منطق أرسطو بأوصاف الكمال والنجازة، [28] من الأقوال التي تجازها الزمن بفعل التقادم. لم يعد كانط راهنا، بل أصبح تقليديا إلى أبعد الحدود. فهل يعقل أن يظهر أي علم، مهما كان، كاملا منذ ميلاده ؟ هل يمكن أن يكون علم المنطق بلا تاريخ ؟ تاريخ يبين ظهوره الفجري، وتطوراته الحثيثة ومنعرجاته الحاسمة ونكساته المتعددة وانجازاته المذهلة ! إن بزوغ علم المنطق المعاصر الموسوم بمنطق تعدد القيم، قد ساهم في ظهور تصور ثوري للهوية، هوية قائمة على عدم تطابق الشيء على نفسه، أصبح كل شيء أكبر أو أصغر من نفسه. الشيء لم يبق هو هو، بل استحال إلى لا هو. لم يصبح الصدق صدقا والكذب كذبا، بل أعاق الضباب المفهومي الرؤية الديكارتية الواضحة وضوح الصحو العقلاني المألوف في منطق الهوية الصارم. فما قصة هذا المنطق الضبابي الغائم ؟ وما مفهوم الهوية الرمادية ؟ التي لا نعرف لها لونا واضحا مثلما كانت ومثلما كان المنطق أيضا.

يجب أن نعترف أولا، وهذا ما أشرنا إليه أعلاه في علاقة العلم بالفلسفة ككل، أن علم المنطق الجديد لم يتأسس منفصلا عن العلم المعاصر بخاصة العلم الفيزيائي الذي اعتبر نموذج العلم الدقيق إلى جانب العلم الرياضي الذي لا يقل عنه في الدقة، بل ربما يفوقه. وقد تحدد عاملين ابستمولوجيين، أفرزهما تطور علمي الرياضيات والفيزياء، ساهما في تأسس المنطق الرمادي الذي لا يعترف بالتحديد التقليدي والصحة المطلقة النقية، وهما:

1 - النتائج المعرفية التي أفرزتها نظرية العالم الفيزيائي هيزنبورغ Heisnberg، المعروفة بنظرية اللاتحديد أو اللايقين. وملخصها أن دقة المعرفة ببعض عناصر الطبيعة يؤدي إلى الجهل بمعرفة بقية العناصر الأخرى. وبالتالي فلا يمكن أن نعرف كل شيء بالدقة المطلوبة، فمعرفة موقع الإلكترون في الذرة، يؤدي إلى جهل أو عدم تحديد حركته وزمنه. وهذا لا يعود إلى قصور تقني أو منهجي، بل يعود في الأساس إلى طبيعة الطبيعة ذاتها.[29]

---

[28] Emanuel Kant: critique de la raison pure, traduit par A. Tremesaygues et B. Pacaud, édition Falix Alcan, Paris, 1905, preface de la second édition 1787, p17.

[29] Niels BOHR: physique atomique et connaissance humaine, traduction d'Edmond Bauer et Roland Omnes, édition Gonthier, Paris, 1961, p 143.

2 -ظهور النتائج درسات جودل Godel في الرياضيات النظرية. وملخصها أنه لا يمكن التوصل إلى رياضيات تجمع في بنائها عناصر النظرية التمامية وهي: التوصيف التام أو المتناهي، والاتساق الكلي والاكتمال النهائي. وهذا ما يجعلنا نقول بأن خاصة العلم الرياضي هو "اللاتمامية" أو "عدم الاكتمالية". بل يمكن الإشارة إلى أن لغة علم الرياضيات من اللغات التي لا تنطبق على الوقائع المحسوسة والمتغيرة والمتجددة رغم الدقة المتناهية في لغتها. لذا وجب التفكير في صياغة لغة نظرية لا تنفصل عن الواقع ولا تلغيه، بل تستجيب له من خلال التقرب منه. وهذا ما قام به العالم الإيراني- الأمريكي "زاده" Zadeh عندما صاغ مبدأ الماصدق الواقعي للغة الرياضية.[30] لأنه كلما اقتربنا من الحياة الواقعية زال الوضوح والتميز الذي تمتاز به الأفكار النظرية، وظهر "الغموض وعدم الدقة والتشوش والابهام واللايقين...".[31] وهذا ما أشرنا إليه أعلاه بثبات التصورات وتغير الوقائع.

ومن هذه الثورات العلمية التي قلبت الكثير من موازين العلم القديم والعلم الكلاسيكي، لابد أن تتغير نظرية الهوية الصورية التي تأسست على بداهة العقل وسيطرته على الواقع الحي. لذا فإننا نسمح لأنفسنا بالحديث عن نظرية الهوية الرمادية أو الغائمة حيث الشيء لا يتطابق مع نفسه، وحيث يمكن الحديث عن صدق وخطأ النظرية دون أي احراج مفهومي. حيث يمكن للإنسان أن يكون هو ولا هو في ذات الوقت. وقد وجدنا عالم الإسلاميات المعاصر والمستشرق الفرنسي "أوليفيهروا Olivier Roy" يتحدث عن "مسلم ملحد"،[32] ولئن بدت هذه التركيبة متناقضة وفق منطق الهوية الموحدة، فإنها وفق الهوية المتشذرة والمتفجرة تركيبية مقبولة ولا خلل فيها. فالأجيال المتأخرة من مهاجري فرنسا مثلا، قد تشكلت لهم هوية معقدة ومركبة لم تكن موجودة في مواطن أجداهم الأصلية. إذ يمكن أن يكون شخص مسلم من حيث الثقافة وملحد من حيث العقيدة، مسلم لأنه يصوم ويستشهد بالتراث الإسلامي ويستغفر وينطق بالشهادتين...الخ. إلا أنه ملحد من الناحية العملية أو حتى العلمية نظرا للأرديته أو عدم التزامه الشعائري أو...الخ. لذا فالهوية في المجتمعات المعاصرة أعقد مما نعتقد، لأننا في زمن العولمة لم نعد نتحكم في الحدود الحضارية والثقافية، ولأنه تشكلت مدن عالمية لا حدود فيها بين القوميات والهويات المحلية

---

[30] Bernadette Bouchon – Meunier: la logique floue, PUF, Paris, 4eme édition, 1993, p 20.

[31] السيد نصر السيد: الحقيقة الرمادية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص 55 – 66-81.

[32] أوليفيهروا: الجهل المقدس – زمن دين بلا ثقافة، ترجمة صالح الأشقر، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 2012، ص 29.وأيضا:
روي جاكسون: نيتشه والإسلام، ترجمة حمّود حمّود، جداول للنشر و الترجمة والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 2015، ص 76.

التي تلاشت إلى حد معين، فهي، أي الهوية العالمية الحالية، تجمع عناصر غير منسجمة في الأصل، مما جعلها لا تتطابق مع ذاتها.

خاتمة تداول النتائج:في مجتمع ما بعد الهوية أو التشذرالهووي الكبير.

المُقال والممكن قوله واسع، أما المقام فضيق ويتضايق دوما، لذا لا يسع لنا إلا تحديد النتائج المهمة المتعلقة بنظرية الهوية المفتوحة والقابلة للانفتاح. والتي يحق لنا أن نسميها على سبيل المجاز "هوية الغد وما بعد الغد". وهي التسمية التي نضعها بدلا من التسمية الحادة التي أطلقها مثلا جوناثان روثرفورد Jonathan Rutherfordفي كتابه المسمة بـ ما بعد الهوية afterIdentity2007.[33] نستعمل عبارة "هوية الغد وما بعد الغد للإشارة إلى نمط من الوجود الهووي الذي يتوجه للمستقبل أكثر مما يلتفت نحو الماضي، لذا فالرهان في تقديرنا هو "استقبال" الهوية بدل تمييضها. وهذا لا يدل على نكران الماضي بالضرورة، لأن الاستقبال، أي التوجه نحو المستقبل، لا يدل إلى على مواصلة تراكمات الماضي. وهذه الحركة طبيعة أكثر مما هي تكلف غير مبرر. لأن التراكمات الكمية تتجه وفق منطق الضرورة إلى التغيرات من حيث الكم، ولئن كانت هذه النظرية ماركسية خالصة، فإننا لا نجد حرجا في توظيف مختلف كشوفات العلم ونتائج التفكير الفلسفي، كعناصر لإبستمولوجيا تؤمن بالتحالفات الجهوية المختلفة من أجل الإحاطة بالظاهرة من كل وجوهها وزواياها الممكنة. فليس هناك فلسفة صحيحة وأخرى خاطئة. ويمكن لنا الإشارة إلى أن "نظرية الهوية الموجه للغد وما بعد الغد" ليست من الأمور المبتدعة كل الابتداع، ولأننا نشأنا على قولة علي (ض) التي تنبه إلى ضرورة تربية الأولاد على أخلاق غير أخلاقنا نحن الجيل القديم، لأنهم في النهاية ولدوا لزمان غير زماننا. فيحق لنا مرة أخرى الحديث عن التنشئة الهووية المستقبلية، أي هوية لزمن غير زمننا، من أجل أن تكون هذه الهوية هدية بدل أن تكون عقوبة ورهن ثقافي ثقيل وقاسي. لأن ما يرهن الجديل الجديد، وهو الجيل الضروري لتواصل الثقافة، هو ضرب من العقاب الهوياتيالثباتي. عندما يشعر الجيل الجديد بأن الهوية تخنقه، وتجله عاجزا عن التحرر نحو العالمية والكوكبية واللانموذجية، فإنه لا يملك إلا أن يحاكم التراث بأقسى ما يملك من ملكات نقدية. نعم، من السهل لوم الجيل الجديد، من خلال اعتباره تهتكيا ومنحلا ومنحرفا وتابعا للغير وضحية للتلاعب الغربي بالعقول...الخ. لكن يجب أن نعترف بأن هذا اللوم لا يفيد شيئا في كبح جماح التغير وموجات الصيرورة الهويية التي لا يمكن أن تتوقف. إن الزمان هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن لنا السيطرة عليه، بل يجب الخضوع له من خلال مسايرته لما يفيدنا.

[33]زيجمونتباومان: الثقافة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2018، ص 40.

وهذا ما يمكن أن نسميه تحررا وحرية بالمعنى الواقعي للكلمة. إن المستقبل هو "فتحة" الإنسان نحو الوجود، هو مخرجنا من الناجز نحو ما يمكن انجازه، هو مشروع الهوية التي تنفتح دون توقف وتتطور حلزونيا بلا انقطاع. لذا فكل تمييض للهوية هو ضرب من كبح تطورها الطبيعي، هو طريقة لكينونة نكوصية تبتغي العودة، وبئس العودة. لأن لا أحد منا يمكن أن يعود بالمعني الحقيقي للكلمة، ولأن ما نريد العودة إليه، وهو الماضي الهووي والحضاري، ليس إلا يوتوبيا الماضي، وقد سُعدنا لأننا وجدنا المستشرق الألماني الكبير "يوسف فان إيس" قد استعمل نفس العبارة، أو قل نفس المعنى أحسن، للدلالة على أن أصحاب الهوية المنغلقة يتخيلون ماض ليس هو الماضي التاريخي، [34] ويسعون للعودة إليه، وما يمكن العودة له، لأنه غير موجود إلا في أذهان وكتب بعض البشر. أقول بعض البشر للدلالة على عدم امكانية تعميم نموذج الإنسان التمامي أي الذي يعتقد بتمام الهوية، والتمامية هنا لا تدل إلا على الأصولية intégrisme الهوياتية. والتوجيه المستقبلي للهوية، يتيح تحقيق امكانياتها العديدة والمحتملة، مما يساعد على اختراع الذات لكل فرد منا، [35] وهكذا يمكن فهم هذه العبارة التي استعملها "كوفمان"، في سياق استمرار الحداثة بما هي توجه للذاتية وتحقيق لها.

ولا يمكن لأحد منا أن ينكر، مهما بلغ به التنكر للواقع والتاريخ والحاضر، ظاهرة تداول مقولة وواقعة التنوع في زمننا هذا. مما يدل على استبدال الوحدة كمقولة منطقية كلاسيكية وهووية، بمقولة التعدد والتنوع كمقولة منطقية معاصرة وعلمية. إن ما يجعلنا نندرج في هوية عالمية واحدة هو تضييق المفهوم في الهوية. وإن ظهر هنا أن التضييق مناقض لمقولة التكوثر والتعدد والتنوع، فإن ما يهمنا هو نتائجه. فبقدر ما تكون الهوية محدودة التعينات، كان مصادقها عالميا واسعا يشمل أكبر عدد من الناس. فعندما تقول أن هويتي هي كوني "إنسان"، فإنك تصنع هنا هوية للجميع دون اقصاء عرقي أو ثقافي أو علمي...الخ. أما عندما تكوثر عناصر الهوية، فإنك تُخرج، اختيارا أو قسرا الكثير من البشر المماثلين لك، لذا فعندما تقول أن هويتي تكمن في كوني "عربيا مسلما وفقط" أو "فرسيا كاثوليكيا فحسب" أو "ايرانيا شيعيا وانتهى"، فإنك وضعت حدودا عازلة قاسية تمنعك من التفاعل الإيجابي والمثمر مع الغير. نحن نقول هذا، وفي ذهننا مقولة الأنثروبولوجية، فلا فضل لإنسان على انسان آخر في التعصب والتمامية، فالتعصب ظاهرة بشرية عامة، لكنها قد تكثر في قوم دون آخر، وفي زمن دون زمن آخر. لذا فالرهان العالمي هو في اقتصاد التعصب الهووي وتصريفه بأحسن الطرق، لتفادي الكثير من الصدامات

[34] يوسف فان إيس: بدايات الفكر الإسلامي – الأنساق والأبعاد، ترجمة عبد المجيد الصغير، نشر الفنك، الدار البيضاء، 2000، ص 99.

[35] Jean-claud Kaufman: L'invention de soi- une théorie de l'identité, 2004.

المحتملة في المستقبل. إن "اقتصاد الاعتقاد" لا يقل أهمية عن اقتصاد المحروقات والمصنوعات...الخ. وللأسف لم يتم الاستثمار فيه، بل لم يفكر أحسن تفكير خاصة في الدول العربية والإسلامية، والجزائر لم تشذ عنها.

وما نود التكفير فيه، كمشروع فكر، بله مشروع حضاري شجاع، ولا انتصار إلا للشجعان، هو التأسيس لنظرية هوية "الغد وما بعد الغد" لكي لا نجعل الأجيال اللاحقة، والتي تحمل هوياتنا الثقافية، في حالة ضيق وشعور بثقل الهوية الماضية. إن استقبال الهوية بدل تمييضهاوتتريثها هو ما يجعلها ممكنة البقاء، في عالم لا يرحم الهويات المنغلقة ولا يرضى بوجودها. واستقبال وجهة الهوية، يدل هنا، على الشجاعة من أجل المستقبل، مستقبل لن يصنعه إلا من لا يخاف، ولا حكمة لمن يخاف من التفكير خارج الأطر المألوفة. إن هوية الخوف، لا تنتج إلا النكوص والارتكاس، في حين أن المطلوب منا، اليوم بالذات، هو الاندماجالهووي، من خلال الفتوح الفكرية النشطة والمساهمة في تشكيل هوية الإنسان المستقبلي.